تفسير إبن كثير

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ

يقول تعالى : (ولما جاءهم) يعني اليهود (كتاب من عند الله) وهو : القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم (مصدق لما معهم) يعني : من التوراة ، وقوله : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) أي : وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم ، يقولون : إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، كما قال محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر عن قتادة الأنصاري ، عن أشياخ منهم قال : قالوا : فينا والله وفيهم يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم ، نزلت هذه القصة يعني : (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) قالوا كنا قد علوناهم دهرا في الجاهلية ، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب ، فكانوا يقولون : إن نبيا من [الأنبياء] يبعث الآن نتبعه ، قد أظل زمانه ،

نقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما بعث االله رسوله من قريش [واتبعناه] كفروا به . يقول االله تعالى : (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة االله على الكافرين) [النساء : 155] .وقال الضحاك ، عن ابن عباس ، في قوله : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) قال : يستظهرون يقولون : نحن نعين محمدا عليهم ، وليسوا كذلك ، يكذبون .وقال محمد بن إسحاق : أخبرني محمد بن أبي محمد ، أخبرني عكرمة أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول االله صلى االله عليه وسلم قبل مبعثه . فلما بعثه االله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور ، أخو بني سلمة يا معشر يهود ، اتقوا االله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى االله عليه وسلم ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته . فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم ، فأنزل االله في ذلك من قولهم : (ولما جاءهم كتاب من عند االله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة االله على الكافرين)وقال العوفي ، عن ابن عباس : (

وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) يقول : يستنصرون بخروج محمد صلى االله عليه وسلم على مشركي العرب يعني بذلك أهل الكتاب فلما بعث محمد صلى االله عليه وسلم ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه .وقال أبو العالية : كانت اليهود تستنصر بمحمد صلى االله عليه وسلم على مشركي العرب ، يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم . فلما بعث االله محمدا صلى االله عليه وسلم ، ورأوا أنه من غيرهم ، كفروا به حسدا للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول االله صلى االله عليه وسلم فقال االله : (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة االله على الكافرين)وقال قتادة : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) قال : كانوا يقولون : إنه سيأتي نبي . (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به)وقال مجاهد : (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة االله على الكافرين) قال : هم اليهود .وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، عن ابن إسحاق ، حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، عن محمود بن لبيد ، أخي بني عبد الأشهل عن سلمة بن سلامة بن وقش ، وكان من أهل بدر قال : كان لنا جار يهودي في بني عبد الأشهل قال : فخرج علينا يوما من بيته قبل مبعث رسول

االله صلى االله عليه وسلم بيسير ، حتى وقف على مجلس بني عبد الأشهل . قال سلمة : وأنا يومئذ أحدث من فيهم سنا على بردة مضطجعا فيها بفناء أهلي . فذكر البعث والقيامة والحسنات والميزان والجنة والنار . قال ذلك لأهل شرك أصحاب أوثان لا يرون بعثا كائنا بعد الموت ، فقالوا له : ويحك يا فلان ، ترى هذا كائنا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ، يجزون فيها بأعمالهم ؟ فقال : نعم ، والذي يحلف به ، لود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه ، وأن ينجو من تلك النار غدا . قالوا له : ويحك وما آية ذلك ؟ قال : نبي يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده نحو مكة واليمن . قالوا : ومتى نراه ؟ قال : فنظر إلي وأنا من أحدثهم سنا ، فقال : إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه . قال سلمة : فواالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث االله رسوله صلى االله عليه وسلم وهو بين أظهرنا ، فآمنا به وكفر به بغيا وحسدا .فقلنا : ويلك يا فلان ، ألست بالذي قلت لنا ؟ قال : بلى وليس به . تفرد به أحمد .وحكى القرطبي وغيره عن ابن عباس ، رضي االله عنهما : أن يهود خيبر اقتتلوا في زمان الجاهلية مع غطفان فهزمتهم غطفان ، فدعا اليهود عند ذلك ، فقالوا : اللهم إنا نسألك بحق النبي

الأمي الذي وعدتنا بإخراجه في آخر الزمان ، إلا نصرتنا عليهم . قال : فنصروا عليهم . قال : وكذلك كانوا يصنعون يدعون االله فينصرون على أعدائهم ومن نازلهم . قال االله تعالى : (فلما جاءهم ما عرفوا) أي من الحق وصفة محمد صلى االله عليه وسلم " كفروا به " فلعنة االله على الكافرين .